Book Reviews | مراجعات الكتب

مراجعة كتاب
الأخلاق والإيمان في فلسفة محمد عزيز الحبابي
لمؤلفه الدكتور أحمد بوعود

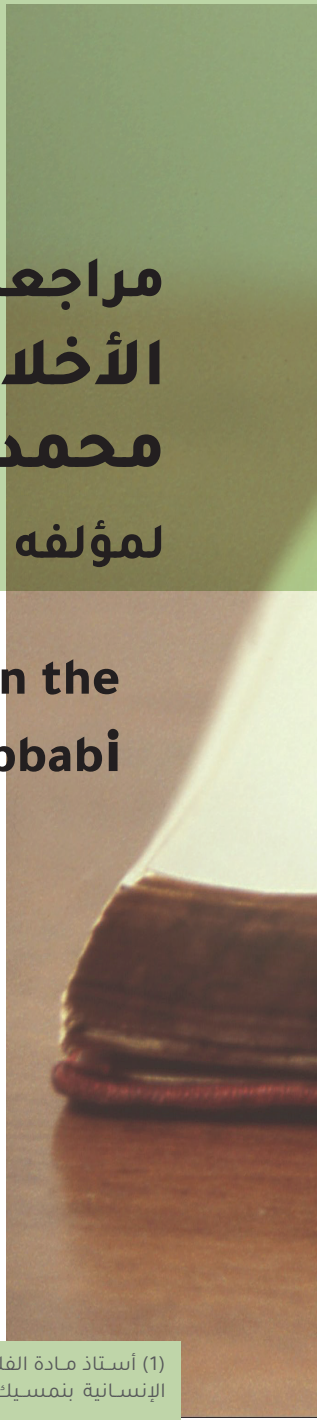

Review of the book Ethics and Faith in the Philosophy of Muhammad Aziz Al-Habbabi
Written by Dr. Ahmed Bououd

محمد الجلالي[1]

Mohamed eljilali

(1) أستاذ مادة الفلسفة، حاصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة الحسن الثاني/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك/الدار البيضاء، البريد الإلكتروني: Mohamed.eljilali88@gmail.com

تقديم

يندرج هذا العمل في سياق **«مبحث الأخلاق»**، الذي يثير الأسئلة المُرتبطة بالعقل العملي وبكل ما من شأنه أن يؤطر علاقة الأفراد ببعضهم بعضًا من جهة وعلاقتهم بالطبيعة من جهة أخرى، ويُسلط الضوء على واحد من أهم أعلام الفلسفة بالعالم العربي، يتعلق الأمر بالمُفكر المغربي «محمد عزيز الحبابي»، الذي يُعد من أبرز الفلاسفة الذين قاربوا سؤال الإنسان وبحثوا في ماهيته ومميزاته الخُلقية والأخلاقية بمنهجية تُزاوج بين اتباع مبادئ العقل النظري والانتصار لنور الإيمان؛ الذي يربط الإنسان بالخالق من جهة وبالمخلوقات من جهة ثانية.

بنية الكتاب وإشكاليته

يقع الكتاب -موضوع المراجعة-في 168 صفحة من الحجم المُتوسط، مقسمة إلى فصلين مُتوازنين ومُتكاملين، حيث يضم كل فصل ثلاثة مباحث، إلى جانب مقدمة ومدخل تعريفي وخاتمة، وقائمة بأهم المصادر والمراجع. وقد سعى الأستاذ أحمد إلى الوقوف عند تصور الفيلسوف محمد عزيز الحبابي لمفهومي الأخلاق والإيمان إلى جانب تحليل نظرته للمُجتمع المعاصر مع الإشارة إلى الحلول التي اقترحها للتقليل من أزماته.

وتجدر الإشارة إلى أن السؤال الذي تنتظم حوله مجمل فقرات هذا الكتاب هو: هل من منقذ للمجتمعات الحالية من الشرنقة الذاتية التي تأسر الأنا، ومن الشرنقة الجماعية التي تحشر الدول في متاهات بلا مخارج؟

يرى المؤلف بأن أزمات اليوم تتجاوز قُدرات اليمين واليسار معًا. والأحزاب الاشتراكية، كما الأحزاب الليبيرالية لم تعرف، ولم تستطع، أن تُبلور سياسة ناجعة للحد من المعضلات المعاصرة، التي أضحت تُرخي بضلالها على الإنسانية جمعاء. إنها لا تُدرك كيف تُحقق المساواة بين الشعوب فضلًا عن تحقيقها بين مواطني البلد الواحد، ولا كيف تؤمن الحريات وتتطلع إلى المشترك الكوني الذي من شأنه أن يخلق التواشج بين الناس عبر العالم. فما المقصود بالأخلاق؟ وما هي مظاهر الأزمات المعاصرة؟ وما موقف الفلسفة

منها؟ وهل الطريق إلى حلها يمر عبر العقل أم عبر الإيمان؟

الأخلاق أولًا: من التحديد النظري إلى الغايات العملية

افتتح المؤلف هذا العمل بمدخل تعريفي حدد فيه دلالة الأخلاق توسلًا بالعديد من المعاجم اللغوية والفلسفية، التي تعكس مدى التزام المؤلف بمنهج الفلسفة القائم على الاشتغال بالمفاهيم إبداعًا وتحليلًا وتمحيصًا ونقدًا، وقد انتهج الباحث مسلكًا حجاجيًا منطقيًا اعتمد بالأساس على أسلوب الاستقراء؛ من خلال تدرجه في شرح المفاهيم المؤطرة للبحث مع الوقوف على مُختلف تمفصلاتها تمهيدًا للانفتاح على أطروحة «الحبابي»؛ بدءًا من موقفه من أزمات العصر مرورًا بالتحليل الذي خصه لهذه الأزمات وانتهاء بالحلول الأخلاقية التي قدمها للمُعضلات المعاصرة.

اقترح الباحث ضرورة الانفتاح على العُدة المفاهيمية التي من شأنها أن تُساعد على بناء حُكم موضوعي على ما يجري في العالم، حيث عرف مفهوم الأخلاق وشدد على الطابع الإلزامي لها بوصفها واجبًا، وليست هبة نتفضل بها على الآخرين، كما بحث في إشكالية الوعي الأخلاقي ليقف على مصدره الطبيعي من جهة بالاستناد إلى تصور روسو وليعرج على موقف برغسون، الذي أكد على دور المجتمع في تكريس المبادئ الأخلاقية. ليستنتج من كل ذلك تعريفًا إجرائيًا للأخلاق بوصفها تعبير عن الصورة الباطنة للإنسان، التي تُقابل الخلقة، التي تُعبر عن الصورة الظاهرة.

ترتبط الأخلاق بفكرة الثواب والعقاب؛ حيث يتمثل الفرد الأفعال التي يُعاقب عليها كممنوعات ويتصور ما يُكافئ عليه كفعل مباح، وهي الفكرة التي نجد لها أساسًا نظريًا في تحليلات كل من سيجموند فرويد وإميل دوركهايم وغيرهما من المفكرين.

خلص الباحث من خلال وقوفه على مجموعة من التعاريف التي قُدمت لمفهوم الأخلاق إلى جملة من المحددات التي من شأنها أن تُسعف في تمثل دلالة هذا المفهوم وهي كون:

- الخلق هيئة راسخة وثابتة في الشخصية.
- تتأرجح تصرفات الفرد غالبًا بين الحسن والقبيح حسب المعايير التي يضعها ا لمجتمع .

عرج الباحث بعد ذلك على دلالة الأخلاق كما وردت في «معجم لالاند» ليقف على خصائصها المتمثلة في كونها عبارة عن نظم وقواعد يتعلمها الإنسان في سياق تاريخي واجتماعي مُحدد، وهو التعريف الذي قاده إلى استنتاج أن «لكل زمن أخلاقه»؛ وهذا ما يضفي على هذا الموضوع طابع النسبية ويجعله موضوع سجال بين الفلاسفة. أمام هذا الوضع الموسوم باختلاف المسالك المنهجية في مقاربة قضية الأخلاق أثار الباحث سؤالًا جوهريًا يدعونا إلى المزيد من التفكير في الموضوع:

أي إلى تخطي عتبة التحديد المفاهيمي لولوج عالم الفلسفة الأخلاقية والإقامة فيها. فهل الأخلاق من نوافل الأفعال أم من جواهرها؟ وهل مُعاملة الناس بشكل جيد يدخل في خانة الامتنان والتفضل أم في دائرة الواجب؟

استرشد صاحبنا في رحلة إضاءته لهذا الإشكال بالعديد من الأطروحات، التي تكشف عن موسوعيته وعن نزعته الكونية في التنظير، ويُمكن أن نُشير إلى تصور **كانط** حول الواجب النابع من الإرادة والخالي من المنفعة، وإلى فكرة **عبد الله دراز**، الذي ربط بين مفاهيم الأخلاق والإلزام والمسؤولية وأبرز أهميتهما بالنسبة للعدالة المناقضة للفوضى والهمجية.

خلُص المؤلف إلى فكرة يصح أن نعتبرها الخيط الناظم الذي يخترق جل تصورات الفلاسفة للأخلاق وهي «أن قيمة الأخلاق تكمن في كونها إلزامًا وليس منة أو تفضلًا». لكن ما الذي يُضفي على الأخلاق طابع الإلزام؟ وما هو مصدرها؟

عمق الباحث القول في هذا الإشكال باستحضار مجموعة من المواقف؛ حيث انطلق من التصور الروسوي القائل بفطرية الوعي الأخلاقي وقابله بموقف برغسون الذي شدد على دور المجتمع في تهذيب فكر الفرد وسلوكه «فالمجتمع قد رسم لنا الطريق، فما يسعنا؛ إذ نجده مفتوحًا، إلا أن نتبعه ونسير فيه»، وهو ما يجعل الأخلاق تتسم بطابع التعدد وتُعبر عن الخلاصة القيمية للعصر الذي تنتمي إليه.

وفي سياق مناقشته لمصادر الأخلاق ظل صاحبنا وفيا لروح الفلسفة القائمة على النقاش؛ حيث استعرض الطرح الكانطي، الذي يؤسس الأخلاق على العقل، لكنه لم ينسى البعد الإيماني في الأخلاق الكانطية المؤمنة بوجود عالم مُفارق تتحقق فيه العدالة. وقد مهد بذلك لموقف تجاوز المجتمع والعقل وحتى الفطرة ليُقر بأن الدين هو منبع الأخلاق، وهو ما عبر عنه «أندري كريسون» من خلال تأمله في الأديان السماوية، حيث قال: «وسواء نظرنا إلى الشريعة الموسوية أم إلى الشريعة المسيحة فإننا نجد مبدأ لا نزاع فيه هو أن الإنسان لا شأن له باكتشاف القواعد الأخلاقية، وما عليه إذا أراد معرفتها إلا أن يتجه نحو النصوص المقدسة يقرؤها ويتدبرها»؛ وهذا يعني أن الدين هو مصدر الوعي الأخلاقي؛ أي أنه يعكس الحقيقية الروحية التي ينبغي على الإنسان أن يفهمها ويجسدها.

1. النقد الأخلاقي للواقع المعاصر

أولا: دلالة الأزمة

استند المؤلف إلى مجموعة من المواقف للتأكيد على أن القرن العشرين هو قرن الأزمة، كما هو الشأن بالنسبة لتصور إدغار موران في كتابه «إلى أين يسير العالم» وبرتراند راسل في مؤلفه «المجتمع المدني في الأخلاق

والسياسة». وتمهيدًا للوقوف على تصور الحبابي أشار إلى أن هذا الأخير قد شدد على ضرورة الانتباه للأزمات الأخلاقية، التي يؤكدها الرواج الكثيف للأدبيات المقاربة للأزمة؛ التي لها تجليات واقعية لا تُخطئها عين الباحث في قضايا المُجتمع، الذي يعي بالأزمة ويساهم في بناء خطاب نقدي حولها. وهو نفس الرهان الذي ينشده الكتاب قيد المراجعة؛ حيث أبرز المؤلف العلاقة الموجودة بين التقدم ووقوع الإنسان في الأزمات، وأشار إلى التأثير المزدوج للحداثة على الإنسان من خلال التساؤل عن المظاهر المُختلفة للحداثة، فهل الحداثة تقدم كمي أم كيفي؟ وما هي أهم نتائج الحداثة على مستوى التنظير والممارسة؟

يبدو أن مفارقة الحداثة تتمثل في اعتبارها تقدم تقني وفراغ إنساني وروحي، حيث تكون للتقدم آثاره العرضية؛ على اعتبار أنه ساهم في تجويد حياة الإنسان لكنه يؤثر على قيمه؛ حيث أفرز التطور التقني وضعًا مُضطربًا على المستويين القيمي والأخلاقي، لذلك تولدت الحاجة إلى نقده وإعادة التفكير فيه، بحثًا عن أفق جديد للحياة الإنسانية.

وتندرج الفلسفة الشخصانية في سياق المقاومة الفكرية للأفق المحدود للتحديث؛ حيث تركت هذه الأزمة الأخلاقية أثرها على أعمال العديد من المفكرين؛ الذين أجمعوا على أن أزمة المجتمع لها أبعاد فردية وجماعية، تُلقي بضلالها على مُختلف القطاعات. ومن ثمة ضرورة تكثيف الجهود المعرفية لاكتشاف الأزمة والوقوف على تجلياتها. فليس المهم الاعتراف بالأزمة بقدر ما يهم التقليل من حدتها؛ والمدخل الأساسي إلى ذلك هو اكتشافها أولًا على حد تعبير **أين راند.**

ثانيًا: مظاهر الأزمات الأخلاقية

أ. الكذب

وقف الباحث عند مفهوم الصدق في الدلالتين اللغوية والاصطلاحية مستثمرًا مجموعة من المرجعيات التي تجمع بين نصوص تراثية وأخرى معاصرة. كما حدد مفهوم الكذب بالاستناد إلى مجموعة من الدراسات من مرجعيات ثقافية ولغوية مُختلفة للوقوف على الخيط الناظم الذي تلتئم حوله كل تعاريف الكذب بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب؛ حيث لاحظ بأن الكذب يرتبط بالتلفيق والخداع والتكتم والإخفاء، ويتأسس على شرط القصدية في تضليل الآخرين وإيهامهم بما يُناقض الواقع؛ وهذا يعني أن الكذب هو نقيض الحقيقة، ويتولد حسب ابن حزم عن «الجور والجهل والجبن». كما وقف الباحث على أوجه الاختلاف بين الصدق والكذب مع الإشارة إلى الحقل اللغوي المعبر عن خطورة الكذب في الأقوال وما يترتب عنه من انحراف في الأفعال.

ويعد الكذب عائقًا أمام الحقيقة؛ إذ يُساهم في نشر الجور بين الناس. لكن هذا لا يعني أن

له ماهية ثابتة؛ إذ من الممكن أن يكون الكذب خسيس يتعلق بإخفاء الحقيقة لغايات تُهدد كيان المجتمع ويُمكن أن يكون نبيلًا عندما يقوم على مبدأ مقبول دوليًا، حيث يُنعت بالدهاء ويرتبط بما يروجه القادة من أخبار زائفة حماية لمصالحهم.

ويرتبط الكذب-حسب الماوردي- بعدة دوافع مثل اجتلاب النفع واستدفاع الضر. لكنه مع ذلك يُعد ممارسة مرذولة ولا تليق بالإنسان. أمام هذا التحديد الرافض للكذب، تساءل الباحث: هل الأصل في الإنسان الصدق أم الكذب؟

عاد المؤلف إلى موقف الحبابي الذي شدد على أن ما هو طبيعي يمتد تأثيره إلى ما هو اجتماعي؛ إذ تتجلى خطورة الكذب في تهديده لأمن المجتمع «وبما أن الكذب مضر بالحياة المجتمعية، فلا بد أن يكون على المستوى الفردي ضارا كذلك». لكن أقصى درجة مخاطر الكذب يُمكن أن نجدها في الكذب السياسي، الذي أبرز الباحث مساوئه توسلًا بتصور **نيتشه؛** الذي حذر من خطورة الكذب السياسي وأكد على ارتباطه بالخداع والتضليل. ووقف الباحث كذلك على النقد الذي وجهه الحبابي إلى من يقارب الكذب بمجهر تراتبي، يتم التمييز فيه بين كذب الإنسان الغربي، الذي يُقدم كبارع وبين كذب الإنسان في العالم الثالث، الذي يُنظر إليه كديماغوجي مع ما تحمله هذه الصفة من ملامح سلبية.

خلص الباحث إلى أن هذا العصر هو عصر كذب بامتياز، تفوق بضخامته وبأشكاله وبوقاحته، وكذلك بدقة تنظيمه، على كل العصور. بحكم ارتباطه ببعض المؤسسات التي لها قدرة فائقة على التمويه. وللكذب مظهرين أساسيين: مظهر كمي يرتبط بالسلوك ومظهر كيفي يهم نوعية الكذب: فالكذبة بقدر ما تكون مريحة بقدر ما يصدقها الناس.

تجدر الإشارة إلى الكذب يسيء دائمًا إلى الغير، وإن كان لا يُسيء إلى إنسان آخر فإنه يُسيء إلى الإنسانية عامة؛ لأنه يقضي على مصدر القانون ويتناقض مع رهان قول الحقيقة بوصفها قيمة أخلاقية غير مشروطة بأي سياق أو منفعة جزئية.

ب. الأنانية

يتمثل المظهر الثاني للأزمات المعاصرة في الأنانية؛ إذ تعبر هذه الأخيرة عن الشطارة والشوفينية، وتعكس الرغبة في الانتصار للهوية الدينية والوطنية التي تتخذ أبعاد دوغمائية؛ حيث يفترض حب الفرد للوطن كرهه للإنسانية. وفي معرض إضاءته لمفهوم الأنانية أشار المؤلف إلى أن هذا اللفظ مستحدث ولا يوجد في المعاجم القديمة، التي كانت تتضمن مفهوم الآثرة الذي كان متداولًا في التراث العربي ليستنتج بأن «الأثرة تفضيل للنفس على الغير وجمع كل خير لها وحرمان الآخرين منه حتى لو كان حقًا لهم، وهنا تلتقي

الأثرة مع الظلم لتكون وجهًا من أوجهه». إن للأنانية وجهان أساسيان إما استغلال الآخرين وإما تفضيل الذات على الغير، وهو الأمر الذي يؤدي إلى تفكك الروابط الإنسانية وإلى دفع الإنسان للانعزال لأنه غير مؤهل للعطاء؛ إذ تعبر الأنانية عن حالة من الأنوميا؛ حيث تتفكك الروابط وتنحصر القيم، ويسود نظام التفاهة وتنتشر الطائفية؛ حيث تم الانتقال من الإنسان المُكبل بالخوف من ارتكاب الخطايا إلى الإنسان المتمركز حول ذاته؛ حيث تفضيل القومية؛ أي تم التحول تدريجيًا من الأنانية إلى الفردانية إلى تقويض مجمل القيم الإنسانية.

وتؤكد هذه الوضعية بأن النهضة الإنسانية قد عجزت عن بناء المشترك الإنساني الكوني بحكم قيامها على المركزية الغربية المُفهرسة على نماذج ثقافية تُقصي الآخر المُختلف دينيًا وعرقيًا.

ت. المُزاحمة

ربط الباحث بين المزاحمة والأنانية، على اعتبار أن المُزاحمة احتكار؛ أي أنها نقيض التعاون والأخلاق الإنسانية؛ حيث تُعبر المزاحمة عن الأنانية وتجسد الظلم على مستوى المعاملات بين الأفراد.

ويتجلى الاختلاف بين المنافسة والحسد في كون هذا الأخير يتعلق بالرغبة في زوال النعمة على الغير والاستفراد بها للذات، بينما تتضمن المنافسة أبعادًا خلاقة؛ نظرًا لآثارها الإيجابية على تطور المجتمع على عكس المزاحمة التي لها أبعاد فردية محضة؛ إذ تدفع المُزاحمة إلى العدوان وتؤدي إلى هيمنة النزعة الاقتصادية على سلوك الإنسان الذي لا تحركه سوى مصلحته المباشرة. وهو الأمر الذي يؤدي إلى غياب التضامن بين الأفراد وإلى تفكك الروابط الاجتماعية.

وقد حاجج الباحث على فكرته، التي ترفع من شأن المنافسة، من خلال من خلال الاستشهاد ببعض الآيات القرآنية مثل قوله تعالى «وفي ذلك فليتنافس المتنافسون». وهذا يعني أن للتنافس آثار إيجابية على المُجتمع بحكم تأثيره على ما يمتلكه الفرد، ودفعه إلى تطويره، وفي هذا التطوير فائدة عظيمة للمُجتمع بأسره؛ حيث تُعد الملكية أساس بناء المُجتمع، إذ لا يُمكن أن يشعر الفرد بلذة الحياة إذا لم يمتلك الثورة ويستفيد من عوائدها. بينما تُعتبر المزاحمة نقيض الأخلاق؛ أي أنها تؤدي إلى تفكك الروابط بمبرر انسجامها مع حرية الفرد ومع رغبته في امتلاك الأشياء في سياق يبدو أنه مفتوح أمام الجميع بالتساوي، لكنه في الواقع يُلائم إلا فئة قليلة لها الحصانة السياسية والإمكانيات المادية التي تخول لها إمكانية ربح معركة المنافسة. لكن ما لاحظه الحبابي هو أن «المجالات مفتوحة، لكن ليس جميع الأفراد مهيئين)بالتساوي(للمقامرة، فلا ينجح في المزاحمات إلا الأقوياء».

وتجدر الإشارة إلى أن المزاحمة بمعناها المعاصر هي محاكاة لحالة الطبيعة حيث الغلبة

للأقوى، وهو ما يؤدي حتميًا إلى انحصار قيم الصداقة والتعاطف وتضاعف مشاعر الأنانية.

فما هو الحل لتجاوز هذه المُعضلات؟ وما هو السبيل لإعادة الإنسان إلى جادة صوابه؟ كيف يمكن الحد من هذه الأزمات؟

قارب الحبابي هذا السؤال من داخل التصور الإسلامي القائم على القصد، حيث يتوقف جزاء الفعل على حضور الرغبة في العمل والاجتهاد وما يترتب عنهما من نتائج إيجابية على مستوى حياة الفرد والجماعة. كما ناقش السلوك من منظور نقدي ينسجم مع المبادئ الكونية للعقل مؤيدًا التصور الكانطي للواجب، الذي يرى أن الفعل الحسن فعل حسن في ذاته؛ أي غير مشروط بأي سياق وغير مقيد بأية غايات نفعية؛ حيث يستمد الفعل الأخلاقي قيمته من مقاصده «وهكذا فإن الفعل الحسن هو فعل ذو عواقب ومآلات حسنة. إن للاستتباعية ارتباطًا وثيقا بالنفعية؛ ذلك أن الأخلاق تتحدد طبقًا لما ينتج عن الفعل من منافع ومصالح أو أضرار» يتحمل الإنسان نتائجها بحُكم انسجامها مع إرادته، وهذا يعني بأن الفعل الحر يؤثر على العالم والآخرين بحكم أنه يصدر من الذات ويتجه نحو العالم في أبعاده المادية والرمزية والفكرية.

ويرى الحبابي في سياق مناقشته لمفهوم الحرية بأن هذا الأخير يشوبه الكثير من الغموض، لذلك حاول إضاءته من خلال ثلاث مرتكزات أساسية وهي:

- لا توجد حرية، بصفة مطلقة مجردة؛ وهذا يعني أن حرية الإنسان مُقيدة ونسبية.
- لا بد من تكاملية الحريات.
- لا تفهم أية حرية إلا إذا ارتكزت على معايير تنظمها وتؤطر غاياتها.

وفي سياق مناقشته للجانب المظلم للوجود الإنساني أشار المؤلف إلى أطروحة «تفاهة الشر» كما تبنتها حنة أرنت التي انتبهت إلى أن «الكائن البشري الأكثر تفاهة يُمكن أن يصير مسؤولًا عن أسوء الفظائع، وليس ضروريًا أن يكون وراءه دافع أو سبب أو حق»؛ وهذا يعني أن الإنسان يُمكن أن يُقدم على ممارسات ليست لها أية مشروعية أخلاقية أو سياسية، وهو ما يؤدي حتمًا إلى وقوع الإنسان في براثن الشر والوحشية. فما هو الحد الفاصل بين الإنساني والوحشي؟ وهل أفعال الإنسان المعاصر مشروطة بيولوجيًا وسياسيًا وثقافيًا أم أنها نتاج لإرادته الحرة والمستقلة؟

حاول المؤلف الإجابة عن الأسئلة السالفة بتقديم فرضيتين أساسيتين وهما:

أولًا: إذا افترضنا أن الإنسان حر، فهذا يعني أنه سيء وشرير وعدو لذاته وللآخرين، وخصوصًا إذا ما أخذنا بعين الاعتبار واقع الحروب والانتهاكات الملازمة لواقع المجتمعات على مر العصور.

ثانيًا: وإذا افترضنا أن الإنسان مشروط بيولوجيًا، فهذا يعني أن له طبيعة شريرة وقبيحة لا جدوى منها لبناء المدينة العادلة. لذلك ينبغي ترسيخ مبدأ المقاومة الأخلاقية والروحية لتخطي أزمة الضمير الذي أضحى يتأسس على معيار المصلحة.

1- طاقات الإيمان باعتبارها حلًّا للأزمات الأخلاقية

يعتبر الحبابي بأن النية هي طاقة القيم الدينية لأنها تقتضي استحضار مراقبة الله في القول والفعل، وبذلك يحق اعتبارها مدخلًا لتزكية النفس؛ إذ ترتبط النية بالأخلاق والتقوى ويبرز دورها في تهذيب الأقوال والأفعال بفعل الإحساس برقابة الله، كما ترتبط النية بالصدق، الذي يُعد أساس كرامة الإنسان لأنه يفرد الله بالعبودية ويُحقق المساواة بين الأفراد بينما يهدد الشرك بالله وحدة الإنسانية ويحقق اللامساواة، وهو ما يتنافى ماهية وجوهر الحقيقة الدينية. وينظر الإسلام إلى وحدة الحقيقة من منظورين:

جانب ذاتي: الحقيقة قوة تؤثر على سلوك الشخص.

جانب مجتمعي: ضرورة الاعتراف باختلاف الناس في الثقافة وإشاعة الاحترام بينهم.

يبدو من خلال ما سبق أن هناك انتقال من الأنا إلى الغير؛ أي من تمثل حقيقة الدين واستيعابه إلى ممارسته في سياق التفاعل مع باقي أفراد المجتمع؛ على اعتبار أن رسالة الدين أخلاقية بالدرجة الأولى كما تؤكد العديد من الأحاديث، التي تُشدد على ارتباط التوحيد بحسن الخلق وبتنوير المُجتمع؛ إذ يغدو الدين الإسلامي كحامل لمشروع الانتقال من حالة الطبيعة إلى حالة المدنية؛ وهو ما ألمح إليه المؤلف من خلال المحاولة التي قام بها لقراءة رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم من منظور فلسفي؛ حيث أبرز مدى قصور العقل وصواب القلب، الذي ينبع منه الإيمان مُنتهيًا إلى أن قيمة الشخص في الدين الإسلامي تتأسس على فضائله الشخصية.

كما ناقش المؤلف في هذا الإطار دولة القرآن واعتبرها واقعية وقابلة للتطبيق، بحكم واقعية ومعقولية القيم التي تنشدها، والتي تتمثل في العدل والحلم والحفاظ على الوحدة والعفو عند المقدرة.

يرى المؤلف أن المسلم يستمد هويته وقيمته من الشهادة التي لها أبعاد نظرية وعملية؛ حيث تفرض الشهادة ضرورة الإيمان بالله والقيام بأفعال خيرة تجاه الجماعة، وهو ما تُجسده الزكاة والصدقة التي يُمكن اعتبارها من أهم أبعاد الغيرية في الثقافة الإسلامية، وهذا ما يبرز حاجة الأخلاق إلى الإيمان،

فالمؤمن الطهور يحترم نفسه وغيره، ويجد في توحيده لله النظام من وراء الشتات الذي يشهده العالم. وهذا معناه بأن عدالة وعقلنة الإسلام ترتبط بالتوحيد.

ولإبراز قيمة الإيمان أشار المؤلف إلى قصة مالكوم إكس المواطن الأمريكي ذي الأصل الإفريقي الذي كان يعاني بسبب اللون والدين، والذي غير صورته عن ذاته وعن غيره بفعل خوضه تجربة الحج، الذي وقف فيه على معاني الكونية والمساواة والاحترام، التي كان يفتقدها في بلده؛ الذي له معايير مُفهرسة على نموذج الإنسان الغربي المتمركز على ذاته، هذا الأخير الذي يحتقر المختلف حيث يغدو لون البشرة والانتماء الديني والجنس كعائق أمام الاندماج. وهي النقائص التي يُمكن تجاوزها بالتقوى؛ التي تشترط المساواة بين الناس عل اختلاف أطيافهم. «لقد قلب الحج كيان مالكوم إكس وصيره إنسانًا لا يحمل كرهًا ولا ضغينة للآخر كيفما كان». بسبب هذه الحجة عرف الإسلام الحقيقي، الذي استنتج بأنه الدين الوحيد الذي يمتلك القدرة النظرية والعملية على حل مُشكل العنصرية.

خاتـــمة

بناء على ما سبق نخلص إلى أن أطروحة هذا الكتاب تدافع على إلزامية الأخلاق بغض النظر عن مصدر هذا الإلزام، وتؤكد على محورية الدين في المسألة الأخلاقية؛ التي ينبغي تثمينها إلى جانب دفع المؤسسات التربوية إلى الاهتمام بها لمقاومة الأزمات الأخلاقية، التي لها تجليات كثيرة على مستوى الفرد وعلى مستوى الجماعة. وأمام قصور الحلول الليبرالية والاشتراكية وعجزها عن إيجاد حل للأزمات التي يتخبط فيه المجتمع المعاصر، إلى جانب تهافت خطاب الدراسات المستقبلية وعدم مراعاة تنظيراتها لما يتعلق بكرامة الإنسان واغتصابها لكرامة الإنسان باسم حقوق الإنسان، وهو ما يُضاعف من هامشية العالم الثالث في التأثير على السياسة الدولية المتعلقة بحقوق الإنسان ،اقترح المؤلف -توسطًا بالحبابي- ضرورة استلهام القوة التنويرية للوحي لتجاوز الأزمات الأخلاقية؛ حيث يلعب الإيمان دور كبير في الربط والوصل بين الحق والحق المصلحي كما أنه يرتبط بالسلوك اليومي للفرد، الذي يجب تهذيبه وتجويده وتنويره بطاقات الإسلام الخلاقة، التي ينبغي إعادة ترسيخها على مستوى الكلمات والأشياء.